المستوى العلمي في عصر الإمام الصادق عليه السلام

الدكتور
محمد باقر خزائيلي
مركز البحوث للحوزة والجامعة، قم ـ ايران
m.khazaili@yahoo.com

الملخص:ـ

واجه الامام الصادق عليه السلام رئيس المذهب الجعفري طوال حياته الشريفة المتزامنة مع خمسة من حكام بني امية واثنين من حكام العباسيين احداثا مختلفة ومكاتب فكرية متنوعة والتي كانت اهم نتاج هذه الصراعات والحركات السياسية هي هداية الامام للنزعات الفكرية المتنوعة، بهذه الصورة انه عليه السلام انتهز الفرصة الناتجة من حروب العباسيين لقمع الامويين، وانشأ مدرسة شاملة تربي فيه ما يقرب من اربعة آلاف متعلم في مجال العلوم النقلية و العقلية وسبب بسط و تعميق الافكار الاسلامية وعلى هذا المنوال ظهرت حضارة ثرية في مجال الثقافة الدينية.

الكلمات الرئيسية: الامام الصادق عليه السلام، العلم، المستوى العلمي، منزلة العلم، رئيس المذهب الجعفري

المقدمة:

ولد الامام جعفر الصادق عليه السلام في السابع عشر من ربيع الاول سنة ٨٣ ه ق. في المدينة المنورة. (المجلسي، ١٦٠٣،ج٧،ص). بدأ فترة امامته من سنة ١١٤ ه ق، و بعد مضي ٣٤ سنة من امامته توفي من سم المنصور الدوانيقي اياه في الخامس و العشرين من شوال سنة ١٤٨هـ ق، عن عمر ناهض ٦٥ سنة و دفن جثمانه الطاهر في مقبرة بقيع (الطبرسي، بي تا،ص ٢٦٦). نشاهد في عهده رغبة المسلمين في العلم و التعلم و توغل الناس في مسائل شتي العلمية، الكلامية، الفقهية و.... و في الحقيقة كانت هذه الفترة تعد فترة التطور العلمي و الادبي لتعلم العلوم و المعارف، و من ناحية أخرى قد انفتح باب ترجمة الأثار مما يخاف منه انحراف الافكار جراء العقائد المستوردة المضادة للتعاليم الدينية.

١- أهمية العلم في زمن الامام الصادق عليه السلام:-

ففي مثل هذه الاجواء اسس الامام الصادقعليه السلام مدرسته العلمية المرتوية من بحر العلم الالهي الشاسع و في الحقيقة استدام نهضة والده الثقافية الامام محمد الباقرعليه السلام و بهذا الاسلوب ظهرت الثقافة الشيعية الفذة.

وكان رمز بقاء هذه الثقافة الطائفية هو الدور المعني للادب و العلم فيها مضافا إلى كون المذهب ركنها الاساسي. و ما قيل ان الحكام العباسيين كانوا اهل ترويج للعلم و الادب فانه بيان خطأ اذ الحكام العباسيين الأُول لم يكن لديهم همة سوي تركيز بنيان دولتهم و الذين حكموا من بعدهم قد التهوا بالملذات الدنيوية و المادية و اندفع الاهتمام بالعلماء و اصحاب الكتب إلى جانب من حياتهم (مركز دراسات الاستراسبورغ،١٣٨٨، تلخيص من ص١٩٣ إلى ص١٩٨).

كما يذكر الامام الصادق عليه السلام حول منزلة العلم: عند ما تقوم القيامة يبعث الله العالم و العابد و عندما يقفان امام الله فيقال للعابد اذهب إلى الجنة و يقال للعالم قف و اشفع لمن ربيته من الناس.(المحمدي الريشهري،١٣٨٣،ج٨،ص٣٩٤٥.

٢- اهمية العلوم الدينية في عصر الامام الصادق عليه السلام.

كانت هناك في عصره تيارات ثقافية كثيرة تهدد اغلبيتها الاسلام مثل الزنادقة- المنكرين لله و الدين و الرسولصلى الله عليه وآله- ظهرت في هذا العصر او مسالة التصوف بشكلها الجديد، وكذلك نشأ فقهاء جدد يستنبطون الاحكام من مصادر غير صائبة كالرأي و القياس، وبالنتيجة ان هذا الخلاف الشديد الذي ظهر في هذه الفترة لم يحدث نظيره.(المطهري،١٣٧٨،ص١٢١).

لكن رغم ذلك تمكن الامام الصادقعليه السلام ان يجدد التعاليم الاسلامية الانيقة، ويستلقح ويستحكم الفكر الشرعي والديني الذي فقد اعتباره اثر الخلافات الكلامية والفلسفية الناجمة من مواجهة المسلمين للأديان والثقافات الامم المغلوبة عقب اتساع النطاق الاسلامي، ويعرضها للعالم الاسلامي في اطار علوم شتي.

قراءة القرآن و تفسيره:

نشاهد عيانا اهتمام المسلمين بتعلم حقائق الدين في عصر الامام الصادق عليه السلام. فالمسلمون الجدد كانوا بصدد التعرف على حقيقة الاسلام، و الاعراب انفسهم لم يكونوا اهل الامعان و التدبر في القرآن الكريم بخلاف غيرهم من الامم حيثوا اوغلوا في البحث عن القرآن و علومه خارجا عن الحد، فمن هنا بدأ النقاش في مجال تفسير القرآن و قرائته وبما ان طبقة القراء ايضا نشأ في هذه الفترة، ظهر خلافا كثيرا حول قراءة و شرح معاني الآيات الكريمة، في غضون ذلك قام الامام بالنقاش مع الآخرين حول قراءة و تفسير القرآن(المطهري،١٣٧٨،ص١٢٧). فكان يعلم تلاميذه المعني و الفهم الصائب للآيات و تفسيرها فقدم تلاميذ فذة قاموا بنشر و توسيع التعاليم. من جملتهم أبان بن تغلب الذي كان من الشخصيات الاسلامية المميزة و الذي اشتهر بدراسته للمسائل و تخصصه في علوم القرآن.(على دوست خراساني،١٣٧٧،ص٢١٩).

فلذلك نقول بجرأة ان لولا الامام الصادق عليه السلام و نهضته العلمية المبتنية على التعاليم القرآنية الخالصة، لم يتمكن القرآن و تبعا له الدين الاسلامي ان يقاوم تجاه فتن العصور من جملتها التيارات التي تفسره بآرائهم او اهل الحديث المنكرين لحجية ظواهره.

الفقه وأصوله، من اهم المشاكل التي مارسها الامام طوال فترة امامته هو الصراع العقائدي في مجال الاحكام الفرعية الشرعية اي الفقه الاسلامي، حيث بدأ الفقهاء نشاطهم الفقهي وتصدوا للافتاء للناس وكم من فرق مختلفة اتبعوا اذواقهم وميولهم في فروع الدين واحدثوا عقائد و آراء غريبة مضلة للاذهان.

تعاليم الامام الفقهية المشتهرة بالفقه الجعفري، هو الفقه الاسلامي الصحيح والاصيل المتفرع من الوحي النازل على النبي الكريم صلى الله عليه وآله، وفي الحقيقة لم يدس الامام فيها شيئا من عنده كما فعله رؤساء المذاهب الأُخر، اذ مدرسة الامام هي مدرسة النبي صلى الله عليه وآله نفسها، الذي نقحها من البدع والخرافات اثناء الفرص المتاحة له وشرح حقائق الاحكام وفسرها للمسلمين فأحيا ودون الفقه من جديد بعد اندراسه وتحريفه خلال القرن الفائت (الكمباني،١٣٧٠،ص١٤٣-١٤٤). في هذا المجال جمع حوله تلاميذ كثيرون، من اشهرهم يجدر الاشارة إلى زرارة بن اعين وابان بن تغلب، ولم يكن تلاميذه كلهم من الشيعة

فحسب بل حضر بينهم شخصيات اهل السنة مثل أبي حنيفة امام الحنفية و مالك بن انس امام المالكية، فاقتبسوا من علوم الامام عليه السلام.

مالك بن انس هو امام المالكية و احد ائمة السنة الاربع، الذي وفق للتلمذ عند الامام الصادق عليه السلام، فيقول حول عظمة و شخصية الامام العلمية: ((ولقد كنت آتي جعفر بن محمد و كان كثير المزاح و التبسم، فاذا ذكر عنده النبي اخضرّو اصفرّ، و لقد اختلفت اليه زمانا و ما كنت اراه الا على ثلاث خصال: اما مصليا و اما صائما و اما يقرأ القرآن. و ما رأيته قط يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وآله الا على الطهارة و لا يتكلم في ما لا يعنيه و كان من العلماء الزهاد الذين يخشون الله و ما رايته قط الا يخرج الوسادة من تحته و يجعلها تحتي)) (حيدر، ١٤٠٣، ج٢، ص٥٣).

يقول ايضا ابو حنيفة حول الامام اميرالمؤمنين على صلى الله عليه وآله: ((ما رأيت افقه من جعفر بن محمد)). (جعفريان، ١٣٧٢، ج١، ص٢٤٨). في يومنا هذا و بعد مضي ١٤ قرن من ذلك الزمان بقي الفقه الجعفري كذلك ناميا راقيا رائدا للقوانين الفقهية و الحقوق في كثير من الدول الاسلامية من جملتها جمهورية ايران الاسلامية

حتى المؤتمرات في العالم الاسلامي و كبار المفتين اعترفوا بسيادة الفقه الجعفري على قوانينهم الفقهية. منها اعتراف الشيخ محمود شلتوت اكبر فقيه عند السنة و رئيس جامعة الازهر بمصر الذي افتي بصراحة تامة بجواز العمل بالفقه الجعفري بل حتى اعلن تفوقه.(الكمباني، ١٣٧٠، ص١٦٦)

كذلك مسائل اصول الفقه الهامة و الاساسية مقتبسة من حضرته فقد ظهر اربعماءة تصنيف من اربعماءة مصنف حول اجوبته عن اسئلة اصول الفقه التي اشتهرت بالاصول الاربعماءة. (الامين، ١٣٧٦، ج٦، ص٩٧).

علوم الحديث و جدال الامام مع جعل الاحاديث؛ الدليل الثاني لاستنباط الاحكام الشرعية هي السنة، اذ كما نعلم ان القرآن وحده غير كاف لاستنباط الاحكام و قضاء الحوائج الدينية، فليزم ان يضم اليه السنة النبوية التي اهم تفسير و تبيان للقرآن، على هذا الاساس يتضح اهمية دور الحديث.

لكن عمر قطع ايدي المسلمين عن سنة النبي الكريم صلى الله عليه وآله بقوله الخاطيء((حسبنا كتاب الله))، في حال ان النبي صلى الله عليه وآله و حتى قبيل وفاته اكد على ملازمة القرآن و عترته، و متابعة عثمان للحاكمين قبله سبب هجران السنة بحيث لم يهتم احد بتدوين الاحاديث حتى منتصف القرن الثاني للهجرة، لكن حكام بني امية تجاسروا شيئا فشيئا و لاجل استحكام دولتهم و اجتذاب قلوب الناس اليهم و تبغيض اميرا لمؤمنين علي عليه السلام و اهل بيته اليهم التجأوا إلى جعل الاحاديث و تطميع الدساسين للجعل و الوضع، كذلك اضافة إلى بني امية بدأ الخوارج و غيرهم امثال الزيدية و المعتزلة و الاشاعرة و ائمة المذاهب الاربعة ايضا بجعل احاديث في اثبات مذهبهم و ابطال الآخرين.(الكمباني،١٣٧٠،ملخص من ص١٢٣ إلى ص١٣٠) و في غضون ذلك الامام عليه السلام بشخصيته الصميمة و الحكيمة قام باستخلاص حقائق الدين من بين الاوهام و الخرافات و المجعولات، و نشر الاحاديث و عرّف الناس موازين تشخيص الغث عن الثمين، بحيث لم يبلغ ما روي عن غيره من الائمة عليهم السلام معشار ما نقله رواة الحديث عنه عليه السلام من معارف و علوم الدين، و عدد الرواة عنه كثيرة ايضا؛ يمكن مشاهدة اسمائهم في تهذيب الكمال للمزي و ساير كتب الاسناد كتهذيب التهذيب، هذا مع ان كثيرا من المحدثين كانوا لا يجسرون على الرواية منه عليه السلام زمن بني امية،(جعفريان،١٣٧٢،ج١،ص٢٥٢).

ففي الكتب الروائية الاربعة للشيعة اي الكافي، من لا يحضره الفقيه، التهذيب والاستبصار رويت احاديث كثيرة عنه عليه السلام ايضا، في الحقيقة في تلك الفترة المظلمة و تقهقر العالم، نوّر الامام عليه السلام الفكر الشيعي بنور احاديثه و تعاليمه المزدهرة.

علم الكلام:

كما جاهد الامام عليه السلام لمواجهة العقائد المنحرفة في فروع الدين، ففي مجال اصول الدين قام بتبيين الشريعة و ترسيم النظرات الكلامية، من اهم بحوث الكلام المطروحة آنذاك يمكن ان نشير إلى مسالة الجبر و الاختيار و حدوث العالم و مباحث التوحيد و صفات الذات.

وردت روايات كثيرة عنه عليه السلام حول علم الكلام و رد الدهريين، نكتفي من باب المثال بالاشارة إلى توحيد المفضل(الامين،١٣٧٤،ج٦،ص٦٧). كتاب التوحيد للمفضل هو رسالة دينية و كلامية في مجال التوحيد. نعم لا يمكننا بيان انظار الامام عليه السلام هنا تفصيلا لكن

كلامه الشهير في الجبر و الاختيار((لا جبر و لا تفويض)) اجمل و ادق عبارة ابرزت في هذا الباب. (جعفريان،١٣٧٢،ج١،ص١٠٢) اهتم الامام بتربية تلاميذ مبرزين في مجال النقاش الكلامي امثال هشام بن الحكم الذي كان متكلما ذو سابقة في الكلام يخاصم و يناظر متكلمي الفرق الاسلامية المتاثرين بفلسفة اليونان و يدحرهم بقوة. (على دوست الخراساني،١٣٧٧،ص٢٣٩)

٣- العلوم العقلية في عصر الامام الصادق عليه السلام.

العلوم العقلية هي منظومة الفكر الاسلامي و ذات اهمية خاصة و الشاهد عليه آيات القرآن الكريم التي تحرض و ترغب في التعقل و التفكر امثال:

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة/٢٦٢) و ﴿...بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة/١٦٤)..)) لكن حتى عصر الامام الصادق عليه السلام لم ير التفاتة خاصة إلى هذه المسالة كما يقول الاستاذ الشهيد المطهري: ان الامام عليه السلام هو اول من اسس المدرسة العقلية(الفلسفية) في العالم الاسلامي. و افضل دليل على نشؤ العلوم العقلية في زمانه هو انه جميع كتب حديث اهل السنة كالبخاري و الترمذي... لا تحتوي الا على المسائل الفرعية و الاحكام، لكن كتب حديث الشيعة تبدأ ب((كتاب العقل و الجهل)) و ابواب اخر من احاديث الشيعة المطروحة حول القضاء و القدر و غيرها من المسائل العقلية التي لم تتطرح في كتب الآخرين.(المطهري.١٣٧٨،ملخص من ص١٣٦و١٣٧) من ناحية أخرى كان عصر الامام الصادق عليه السلام في العالم الاسلامي، عصر ازدهار كتب الفلسفة الغير الاسلامية ترجمة و تاليفا بالعربية. اضف إلى ذلك ان الزنادقة انتهزوا الفرصة و قاموا بمعارضة الآراء المختلفة دفاعا عن عقائدهم المزيفة.

على هذا الاساس و في حين ظهور فلسفة اليونان المبهمة و كذلك طرح المباحث المتنوعة كالجبر و التفويض و القضاء و القدر و.... في الاطار الفلسفي، نشط الامام بتفهيم اصحابه المباحث المذكورة بطريقة ساذجة و صائبة و قدّم تلاميذ فذة كل واحد منهم يناقش العلماء الكبار و غيرهم فيجادلونهم حتى الافحام، يمكن مشاهدة اسلوب استدلال الامام و تعاليمه و آراءه في كتاب توحيد المفضل. كان غرض الامام من جميع هذه التعاليم هو

عرض المعرفة الصحيحة للتوحيد و كان اغلبية تعاليمه العلمية و الفلسفية بصورة المناظرة.(الكمباني،١٣٧٠،ص١٠٣) و في مواجهة العرفان الجامد السائد في زمانه، عرّفها بالمعرفة الشاملة للتوكل على الله و اجراء الاحكام بدون تكلف الرياضات الصعبة و المفرطة، المبيد لنظام الحياة. فانه عليه السلام اضافة إلى رفضه لترك الدنيا نهائيا كان يؤكد على وجوب تنظيم الحياة المادية إلى جانب امور الآخرة، فعليه طريقة الامام هذه تنطبق على الشريعة، و بما ان الامام جعفر الصادق عليه السلام كان اول عالم فيزيائي و كيميائي في العالم الاسلامي حقيقة، و بالطبع ليس عنده نزعة عرفانية لكنه كما نري كان يميل اليه بحيث ان الزمخشري الشهير في كتابه ربيع الابرار بعد الثناء عليه و تمجيده عده رائدا في العرفان.(مركز الدراسات الاسلامية استراسبورغ،١٣٨٨،ص١٨-٩٩) و كذلك كان عليه السلام مؤسسا لعلوم كثيرة يمكن نعد منها الفيزياء و الكيمياء و الجغرافيا و..... التي نشأت وكملت لدي الامم الأُخر بعد قرون. كان جابر بن حيان تلميذه المبرز في الكيمياء الذي ذكره ابن النديم في الفهرست و نسب اليه ما يقارب من ماءة و خمسين كتاب اكثرها في مجال العلوم العقلية والكيمياء والصناعة وخواص الاشياء وطبايعها، و الذي يسمونه في يومنا هذا بوالد علم الكيمياء. (المطهري،١٣٧٨،ص١٣٧)

يفضل الامام عليه السلام الاخلاق الحميدة و تزكية النفس على طلب العلم و المعرفة. فكان يوصي تلاميذه قبل كل حلقة بالصدق و الفضيلة و التقوي و اكتساب المعنويات و تقوية الاسس الاخلاقية.(الكمباني،١٣٧٠،ص١٧٩) و كذلك روي احاديث كثيرة عنه عليه السلام حول العلاقات الحسنة بين افراد المجتمع، الحديث المشهور((احب لغيرك كل ما تحب لنفسك و اكره لغيرك ما تكرهه لنفسك)) هو شاهد على المسالة. فعلي هذا كان عليه السلام اضافة على تعليمه الناس التعاليم الاخلاقية الخاصة التي تتعلق بتهذيب النفس كثيرا ما يوصيهم ايضا بالمحافظة على التكاليف الاجتماعية الواجبة على كل مسلم.(الكمباني،١٣٧٠،ص١٧٧)

الخاتمة:

اهتم الامام الصادق عليه السلام خلال سني امامته الست و الثلاثين المباركة و انتهازا للفرص المتاحة له بتمهيد نشر المعارف و الاحكام الالهية بين المجتمعات الاسلامية من طريق بث الروايات و التعاليم المنوعة و مكافحة العقائد الباطلة. إلى حد يمكن ان نعتبر زمانه العصر

الذهبي لازدهار الحضارة الاسلامية و فوق ذلك كان نمو المذهب الشيعي حصيلة جهود هذا الامام العظيم.

قائمة المصادر والمراجع

١- الطبرسي، الفضل بن الحسن(بي تا) اعلام الوري باعلام الوري، طهران: درا الكتب الاسلامية، الطبعة الثالثة.

٢- اسد حيدر(١٦٠٣)، الامام الصادق و المذاهب الاسلامية، بيروت: دار الكتب العربية، الطبعة الثالثة.

٣- المجلسي محمد باقر(١٩٠٣)، بحار الانوار، بيروت: منشورات مؤسسة الوفاء، الطبعة الثانية.

٤- على دوست الخراسانينور الله(١٣٧٧)، ومضة من حياة الامام الصادق عليه السلام،طهران: مكتب نشر الثقافة الاسلامية، الطبعة الثانية.

٥- الكمباني فضل الله(١٣٧٠)، الامام الصادق عليه السلام، طهران: نشر دار الكتب الاسلامية، الطبعة الرابعة.

٦- جعفريان رسول(١٣٧٢)، الحياة الفكرية و السياسية لائمة الشيعة، طهران: مركز طبع و نشر منظمة التبليغات الاسلامية، الطبعة الثانية، الجزء الاول.

٧- الامين السيد محسن(١٣٧٦)، سيرة المعصومين، ترجمة على الحجتي الكرماني، طهران: سروش.

٨- المطهري مرتضي(١٣٧٨)، نظرة في سيرة الائمة الاطهار، انتشارات صدرا، الطبعة الثامنة عشر.

٩- مركز الدراسات الاسلامية استراسبورغ(١٣٨٨)، دماغ الفكر الشيعي، ترجمة ذبيح الله المنصوري، طهران: انتشارات بدرقة جاويد، الطبعة الخامسة.

١٠- المحمدي الريشهري محمد(١٣٨٣)، ميزان الحكمة، ترجمة حميد رضا الشيخي، قم: دار الحديث، الطبعة الرابعة، ج ٨.